الثقافة العربية

بين مختلف أشكال التحدي والمواجهة

أحمد الطويلي

يشهد العرب اليوم تحديات من أكبر التحديات التي واجهتهم وامتحنوا بها عبر تاريخهم الطويل ومن بينها محاولة القضاء على شخصيتهم الثقافية وتهديد كيانهم وعرقلة تحقيق مصيرهم.

لقد تعرض العرب في الماضي إلى شتى الغزوات من الشرق والغرب، فتوالت عليهم الحملات الصليبية والاستعمارية تريد أن تنهك قواهم وتضرب مجدهم في الصميم فأرهقتهم أيما ارهاق اقتصادياً واجتماعياً ونفسانياً وأدبياً. ورغم ذلك فقد واجهوا مختلف هذه الحملات بكل المعنويات النفسية المرتفعة وبكل قواهم التي مكنتهم من الوقوف في وجوه المغيرين والصمود إلى اليوم حضارياً وثقافياً.

واليوم يواجه العرب تحديات مزدوجة، فبالاضافة إلى التحديات الاستعمارية والصهيونية الصريحة، وهي ذات صبغة سياسية واقتصادية ترمي إلى الاستحواذ والاحتواء والقضاء نهائياً على الأرض والعباد وامتصاص كل الخيرات واستغلال كل الثروات، نجد تحديات حضارية ثقافية تتسرب إلى الصميم، تعتمد خطة نفسية وفلسفية بعيدة المدى.

ويمكن أن نقسم هذه التحديات من جهة أخرى إلى تحديات داخلية، استفزازية، انهزامية، تبعث على اليأس، وتثبيط الهمم، وتقضي على المعنويات، وتحديات خارجية استعمارية وصهيونية تصد عن التقدم والازدهار وتعرقل الطموح والتوق إلى الوفاء وتحقيق الذات.

لقد صدم العرب خلال جوان ١٩٦٧ صدمة كبرى بالواقع المر الأليم، صدمة نفسية كان من نتائجها الوعي العميق بالذات وبالأخطار الحقيقية التي تهددهم في كيانهم وذواتهم، في وجودهم ومصيرهم. استهدفت القوات الاستعمارية القضاء على ذاتيتهم ولكنها أخفقت ووجدت في مختلف البلدان العربية صموداً ووعياً ومعارضة عنيفة، لكن القوى الاستعمارية غيرت من أساليبها ومناهجها فتراها تخفي نفسها وتتقنع وراء المساعدات الاقتصادية والسياسية ووراء أجهزة إعلامها وما تبثه خلالها من سموم، فتعتمد الدس والتحريف التاريخي وإخفاء الحقائق متوخية في ذلك العنصرية والكره، وكان الغزو الثقافي أبشع مظاهر الغزو الاستعماري لأنه يبث الشك واليأس ويؤدي إلى التبعية والذوبان في الغير، وهو يرمي أساساً إلى تحطيم الشخصية والتشكيك في دورنا الحضاري وقتل معنوياتنا الأدبية، والفت في امكانياتنا في الخلق والابتكار.

لقد جاءت نظريات عديدة تتسم بالعلم والعلمانية، لكنها تمجها حضارتنا لأنها تستهدف روح ثقافتنا وعمودها الفقري بزرع القلق وفقد التوازن النفسي وخلق الأزمات الروحية والفكرية.

ويمكن أن نرى إزاء هذا العزو الثقافي، وهذه التحديات خلال أحلك الفترات الاستعمارية التي واجهتها الأمة العربية ثلاثة مواقف.

١) تنكر مطلق للذات القومية أدى إلى التجنس والتغرب والانبتات وضياع الهوية والذوبان في الغير.

٢) التبلبل والتذبذب والحيرة والاضطراب والتمزق النفسي، ومن علامات هذا الموقف الازدواجية في التفكير والتشكيك في القيم العربية، والمشي بخطى وجلة مترددة، وهذا الموقف سلبي ينم عن انعدام الثقة في الماضي والحاضر والمستقبل، وانعدام وضوح الرؤية أمام الحضارة الغربية والجهل بدورنا التاريخي الماضي وعدم الإيمان بامكاناتنا الحضارية والفكرية، وقد صورت هذا الموقف بعض كتابات المستشرقين والمحررين باللغات الأجنبية.

٣) الإيمان المطلق بثقافتنا والاعتزاز بقيمنا الفكرية والأدبية، وعدم الذوبان في الغير فكرياً وحضارياً، ويتضادّ هذا الموقف مع الموقفين السالفين في وضوح الرؤية وصدق التجربة والاتفاق مع النفس، وهو الموقف المتغلب ونجد صوراً منه في الأدب العربي خلال المواجهة التي تمر بها الأمة العربية منذ الحروب الصليبية في العهد الوسيط، وهو اتجاه ثقافي يستقي من الروح الحضارية العربية ومقومات الأخلاق العربية الشرقية في الوفاء للقيم لخلق ثقافة جديدة، انسانية قبل كل شيء، متفتحة، فارضة شخصيتها بميزاتها الأصيلة، ومساهمتها في محاولة حل مشاكل الإنسان في العالم مهما كان وأينما كان.

لقد اطلع العدد الوافر من الكتاب العرب على الفكر الغربي وتعرفوا على مواقف الثقافة الغربية منهم ومن ثقافتهم، فمنذ

عهد محمد علي بمصر وعهد أحمد باي الأول بتونس، بدأت حركة الاتصال المباشر بالفكر الأوربي والغرب الأوربي، ثم بعد ذلك استطاع المستعمرون أن يتحكموا في البلاد العربية ويبسطوا نفوذهم فيها ويفرضوا أنماطهم الثقافية والفكرية في التربية والتعليم والاقتصاد والسياسة والإدارة، واحتك جانب من المثقفين العرب بالثقافة الغربية إلى جانب تشربهم ثقافتهم العربية، مما مكن عدداً منهم إلى النفاذ في الحضارة الغربية وفهم روحها وجعلهم يتشبثون عميق التشبث بحضارتهم ويضطلعون بمهمة تأصيل الكيان وإثبات الذات ويقوي عزمهم على اعتماد التراث وتوخي منهجية خاصة لإعطاء معنى عقلي وديناميكي للتاريخ العربي ومساره عبر الأجيال. وتفطن هؤلاء بعد بحث وتفكير، إلى قيمة تراثهم ذي الشهرة العالمية الفذة وما يشيعه المستعمرون والصهاينة من الكذب والتدجيل لتشويه هذا التاريخ وتمويه الحقائق والتبجح بالتاريخ الغربي منذ رامت الكنيسة وهي في أعظم سلطانها توقيف الحضارة العربية كيلا تكتسح أروبا وضرب الآداب والفنون العربية حتى لا تحل ببلادهم وتؤثر في آدابهم وفنونهم.

وتعيش اليوم الثقافة العربية مرحلة اثبات لذاتها، وابداع لوجودها في وجه هذه التحديات المختلفة، وأشد ما تواجهها به هو التحدي، وهو أقوى وأنجع وسائل المواجهة والمقاومة، وهو امتداد لتحدي أجدادنا للثقافات الأخرى منذ الفتح العربي الإسلامي وينبثق من قيمنا وإيماننا بها وقدرتنا على الاشعاع المتواصل، وقد خرج أجدادنا كل مرة من تحديهم هذا خلال تاريخهم الطويل أقوى من قبل، وأغنى وأثرى وأقدر على المواجهة بعد أن هضموا كل العناصر الايجابية في الثقافات الأخرى وصهروها في كيانهم ولم ينصهروا في الأمم الأخرى التي أرادت ابتلاعهم، فشملت الثقافة العربية زيادة على جدود الوطن العربي الحالية، أماكن جد قصية من الصين إلى الهند إلى خوارزم مروراً بمدن فارس. وقد كان الغرب مغرقاً إلى الأذقان في التوحش والهمجية عندما كانت الحضارة العربية في أوج تألقها، وكانت المدن العربية علامات اضاءة واشعاع، كانت بغداد، دمشق القاهرة، تونس، القيروان، بجاية، فاس، مراكش، قرطبة، غرناطة، اشبيلية وغيرها نقط ازدهار فكري، وأدبي....

وفي الوقت الذي يتساءل فيه فلاسفة العرب عن قيمة حضارتهم وجدواها، وأحسوا بحفافها وعقمها الروحي، وأخذوا يشكون في قيمهم الثقافيه ومثلهم الأخلاقية ويبحثون عن معايير جديدة وسلم قيم جديد في بناء ذواتهم، نرى الأمة العربية أولى من غيرها بثقافتها أن تقدم للإنسانية جمعاء معالم جديدة ودروساً في المواجهة والصمود وتحقيق معالم الشخصية.

يتحتم على ثقافتنا في هذه المواجهة، وفي هذه الظروف لا الدفاع فقط عن نفسها وإنما أن تتحدى وتقدم نسخاً جديداً لحياة الأمم، ويتحتم على مثقفيها أن يبصروا بما قدمت أمتنا من اسهام باهر في الحضارة الإنسانية الحاضرة ثم أن يردوا الاعتبار الحقيقي للإنسان مهما كان أينما كان ابتداء من الأراضي العربية.

إن مثقفينا في مركز قوة إزاء شعوبهم ودورهم يتمثل أساساً لا في الكشف فقط عن البطولات العربية في التاريخ القريب والبعيد، وإنما في الكشف عن البطولات اليومية التي تفرزها شعوبنا وعن المجد الذي تبنيه شعوبنا في كل آن مساهمة في بناء الوطن العربي الكبير.

وبالاضافة إلى ذلك يمكن أن نحدد دور الثقافة العربية في مواجهة أخطار التحديات الحضارية الأجنبية والتحديات الاستعمارية والصهيونية في هذه المقترحات الثلاثة لبناء ثقافة قومية عربية:

١) التشبث بالقيم الفكرية، والإيمان بالنصر واعداد النفوس لهذا النصر، وبث الأمل في القلوب، والتفسير للمخاطر والتعبئة الروحية التامة لكل القوى في هذه المعارك الحضارية والعسكرية، ويتسنى ذلك أولاً بالقضاء العاجل على الأفكار الانهزامية لأن الذين يبثون روح الهزيمة في شعوبنا في كل مناسبة عن وعي أو غير وعي، هم يضربون أمتنا في الصميم.

إن رسالة المثقف اليوم هي في التصدي لكل من يبث الشعور بالويل والثبور، وبالهزيمة والخسران، لأن أمتنا قوية بإمكاناتها العديدة، المادية والمعنوية، لها أن تتفاءل بالمستقبل، وأن تعتبر أن ليست هناك أمة لم ترتكب أخطاء، لكن قوتها في ارتفاع معنوياتها والتغلب على المصاعب والتخلص من المساوي والقضاء على الرواسب المتبقية من عهود الظلم والاستغلال والتعصب وقصور النظر وعدم الوعي والضبابية في الرؤية والاعجاب المدهش اللامسؤول بالغير ...

فدور الثقافة اليوم هو تسليط الأضواء على أنفسنا ثم على أعدائنا، ومعالجة أمراضنا والاسراع بالقضاء على داء الانهزامية المهرىء لعزائمنا. يكفي إذن من البكائية وندب الأوضاع العربية، والاكتفاء بالاهتمام بالحالات السلبية للأمة العربية لبث الوهن والتفريق واليأس.

يكفي إذن من التفجع والتوجع والعويل على كل صغيرة أو كبيرة تمس جزءاً من وطننا العربي الكبير أو تحاول أن تمسنا عبثاً في الصميم ولكنها لا تدركه. دور الثقافة العربية اليوم هو لا بث الوعي فقط في النفوس ودعم الشخصية العربية وتقوية الذاتية القومية وإنما أساساً هو غرس الإيمان العميق بمستقبل أمتنا الرائع والقدرة على الصمود بكل ثقة في وجه كل من يحاول أن يتسرب إلى حصننا المانع والمنيع.

ونحن نتساءل عن قيمة هذه النصوص الشعرية والفكرية التي تطفح بها ساحة الأدب العربي الحديث والمليئة بروح الانهزام الذي يتضمن اللوعة الكاذبة، والتهويل الذي من شأنه أن يخدر الأعصاب، ويبعث على الاحساس بالشقاء والخجل من الانتماء إلى هذه الأمة، وهي نصوص أدبية غير واعية وغير مسؤولة، وهو أدب خطير على شعوبنا، ذو مفعول عكسي في القلوب يدعو إلى النقمة واليأس من الاصلاح!...

إن مهمة الأديب في هذه الآونة التاريخية الراهنة في حياة شعوبنا لمهمة دقيقة حرجة وإن الكلمة لسيف ذو حدين، وليس أسهل من التحطيم والبكاء وإبراز السلبيات. أما البناء أو

اقتراح نظرة بناءة خاصة بالمستقبل فهو من أعسر الأمورومن أوكد الواجبات..

٢) إعداد ستراتيجية ثقافية وخطة أدبية كاملة لتجاوز هذه الأخطار والقضاء على الأزمات الروحية والبلبلة في النفوس، خطة متكاملة الجوانب، تعبر عن شتى الاهتمامات الوطنية والطموح القومي والتوق إلى الحرية وإقامة حكم دمقراطي، وتتوخى ايديولوجية ثقافية مضادة للتيارات المثبطة للعزائم وكاشفة عن الأسس التاريخية والنفسانية لكل ظروفنا الاجتماعية والاقتصادية.

وهذه الخطة تقتضي تطوير ثقافتنا بعد بلورتها وتحديد الاتجاهات العامة والمنهج المتبع للتغلب على المشاكل وضبط فلسفة ثقافية معينة تقدم معنى للوجود وتعطي قيمة للفن والأدب وتكرم المنزلة الانسانية.

إن التقدم العلمي والاقتصادي للشعوب لا يمكن أن يتم على أسس صحيحة إلا بشرط توخي خطة ثقافية واضحة تتلاءم مع مقتضيات العصر والظروف التي تمر بها. إن عدم مراعاة خطة ثقافية في مواجهاتها السياسيةوالحربية والاقتصادية من شأنه أن يهمش القضايا ويدمر الأسس النفسية والتاريخية والعقائدية للشعوب.

وعلى هذا الأساس يكون تصورنا للثقافة القومية مرتبطاً بمستويات أهدافنا وحاجاتنا.

لقد كانت وسائل المواجهة ضعيفة لأنها كانت غير مخططة وغير حكيمة ولا ترمي إلى بعيد ولا تشمل التحديات التي نواجهها بدراسة جذرية شاملة ودقيقة لذلك وجب أن تكون هذه الخطة تعتمد التحليل العلمي وتعالج قضايانا الفكرية والاجتماعية بكل دقة لشن حرب لا هوادة فيها ضد كل التحديات ولتحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وتحذير التفكير الديمقراطي في أذهان الناس والقضاء على العقد التونسية والاجتماعية وخاصة عقدة الأمم للانتساب لهذه الأمة؟!..

٣) حوار متواصل لثقافتنا مع الثقافات الأجنبية وتفاعل مثمر مع الثقافات الأخرى، واخصاب متبادل بالاعتماد على الترجمة والنشر والمشاركة في المؤتمرات العلمية والثقافية العالمية، ومساهمة فعالة لإقامة العدل وحب الخير في المجتمعات وبذلك يتوفر لثقافتنا وبالتالي لمجتمعاتنا العربية الاشعاع والتلقيح.

وفي هذا الإطار يمكن تحديد ثقافتنا بأنها تصور لأنفسنا وتصورنا للعالم الغير، واتخاذ موقف بناء لأنفسنا منها، وهي بناء لعالمنا من جديد على ضوء ما كان عليه في القديم وما تلقيناه من التاريخ من الدروس وما رأيناه في الواقع من تجارب وما حصل من نتائج من احتكاكنا بالثقافات الأخرى.

وهي إذن وخاصة مجهود لاكتساب حقول معرفة مكتملة الجوانب الروحية والمادية من أجل الخلق المتواصل والابتكار من أجل الكرامة والحرية ضد الاستعباد والاستغلال والسلخ والمسخ والاحتواء. حالما تحصلت تونس على استقلالها انكب مفكروها ومثقفوها على التفكير في مفهوم الثقافة وضبط مدلولاتها وتحديد ما ينبغي القيام به لحصر الخطوط الفلسفية الثقافية لبناء الإنسان التونسي الجديد بعد أن كان على قاب قوسين أو أدنى من الذوبان والمسخ والادماج في الغير، فخصصت بعض المجلات («الفكر»، «التجديد»)، أعداداً كاملة لمفهوم الثقافة، ونظمت ملتقيات عديدة آنذاك شارك فيها رجال الفكر والسياسة، والأدباء والشعراء وتجادلوا أياماً وليالي في معاني الثقافة ومستقبلها بتونس وما يجب الاضطلاع به لبناء المستقبل وبلورة الاتجاه الوطني وتحديد الآفاق القومية وضبط ما ينتظره الشعب من المثقفين.

وقد تبلور أن الثقافة يجب أن تكون أولاً وآخراً في خدمة قضايا شعوبنا فهي النور الذي يضيء وهي الحافز والدافع وهي المرآة الحقيقية للأشواط التي سلكتها الشعوب في تطورهاونمائها. والآن وقد ولى زمن الضياع العربي، وثبتت الهوية النقافية، وانتفت الهامشية، وتهشمت الغربة الفكرية، وأصبحت قضية الانبتات قضية لاغية أو مفتعلة في مجتمع عريق الجذور، ودوى صوتنا بين شعوب العالم- واعترف كل أحد- إلا متكبر أو جاهل- بالعبقرية العربية؛ وإن «شمس الله تسطع على العالم» وإن العرب كان لهم دور كبير في بناء الحضارة الغربية، ولهم امكانات عزيزة الوجود عند غيرهم، آن أن تكون ثقافتنا متفائلة، متفتحة، انسانية، خصبة، تساهم في التحرير والقيادة الحضارية، وينتصب المثقفون والأدباء رواداً إذ هم بناة النهضة الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية في شعوبنا. وهم في حالة تأهب دائم للدفاع الفكري والتصدي للعزو الثقافي الأجنبي والتحديات الاستعمارية والصهونية، رائدهم الاعتزاز بالكيان وتحرير الإنسان إزاء نفسه أولاً ثم إزاء العالم وتخليص الشعوب من شتى الضغوط التي ترهقه بها التحديات المختلفة.

أحمد الطويلي
تونس

دار الآداب تقدم

محمد مندور

وتنظير النقد العربي

تأليف

الدكتور محمد برادة